Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



سنجد (في الطفولة) أن المؤلف يخصص فصلا فريدا للسفر الذي انتواه إلى القاهرة، لمتابعة الدراسة هناك صحبة ثلة من أصدقائه. ولو تشبثنا بالتسلسل الزمني لكان من المفروض أن نقرأ هذا السفر كخاتمة للسيرة الذاتية، لأنها تُنهي به، من الناحية الموضوعية، وكذا على مستوى التطور الحدثي للشخصية المسرودة، حياتها النصية. على أن المؤلف اختار له موقعا متقدما (ص136) عن جميع الأحداث الأخرى اللاحقة، على سبيل التقديم، وربما لخرق مفهوم التطور الخطي الذي التزم به في الفصول السابقة عليه. ويبدو أن التفسير المناسب لهذه القضية كامن في طبيعة التذكر نفسه، الذي يماشي انثيال الذكريات أكثر مما يستجيب لصرامة توالي الأحداث. ثم لا يجب أن ننسي، ونحن ندلي بهذا التفسير، أن (في الطفولة) نشرت مسلسلة في بداية الأمر في جريدة، وأنها لم تُجمع في كتاب إلا فيما بعد. وقد يكون من طبيعة النشر المتسلسل أنه يخضع المادة المنشورة، لاعتبارات مغايرة عن تلك التي قد تفرض نفسها على المؤلف بطريقة نشر مغايرة. وفي جميع الأحوال فقد كان المؤلف واعيا بالخرق الذي مارسه عندما قال: «وبوصولي إلى محطة القاهرة، وصلت إلى أولى محطات شبابي بعد أن غادرت آخر محطات الطفولة، فلنرجع إلى الوراء لنرى ماذا صنع الطفل.. إلخ»(ص141). ويبدو هذا القول بمثابة استدراك، والخرق بمثابة عثرة، وقد يكون المؤلف استجاب لباعث ما في التشويق... إلخ، لأنه سيعود مباشرة إلى مساره الخطي، وإن يكن على صعيد تطور الشخصية، في مرحلة أقرب ما تكون إلى الشباب.

إن حياة الشخصية في المغرب (فاس) تبدو إلى حد ما، مع الفارق، متعامدة مع حياتها في إنجلترا (مانشستر)، إذ سيكون عليها أن تتلقى المبادئ الأولى للمعرفة والسلوك الجديدين حول المجتمع (المغربي) داخل البيت وفي الشارع، وستلج الكتاب لأول مرة كما لو أنها تدخل إلى المدرسة، كما ستشرع في نسج علاقات جديدة، وهكذا. أما الاختلاف الأساسي فهو أن ذلك يتم الآن في إطار بنية مختلفة من حيث التقاليد والعادات والمعرفة واللغة وأشكال اللعب وفضاء العلاقات. ولهذا فإن تطور الشخصية سيأخذ وجهة مغايرة بناء على الانسجام، لا على الاختلاف، كما كان عليه الشأن في إنجلترا. وهو ما يعني أن الحلقة الثالثة، هذه، من حلقات التكون الشخصي والحياتي، بقدر ما تقفل دورة التجربة في السيرة الذاتية، تكشف عن الصورة العامة لتحول الأنا داخل النص، نقصد من زاوية تكون الهوية الناطقة بالفرادة. ولعل الأحداث التي يسردها المؤلف في هذه الحلقة، كالتحاقه بالقرويين، وبداية تعرفه على (العمل الوطني)، وطبيعة العلاقة الثقافية التي أقامها مع أنداده، ثم بداية النشر في الصحف..إلخ، من العلامات الرامزة إلى ذلك.